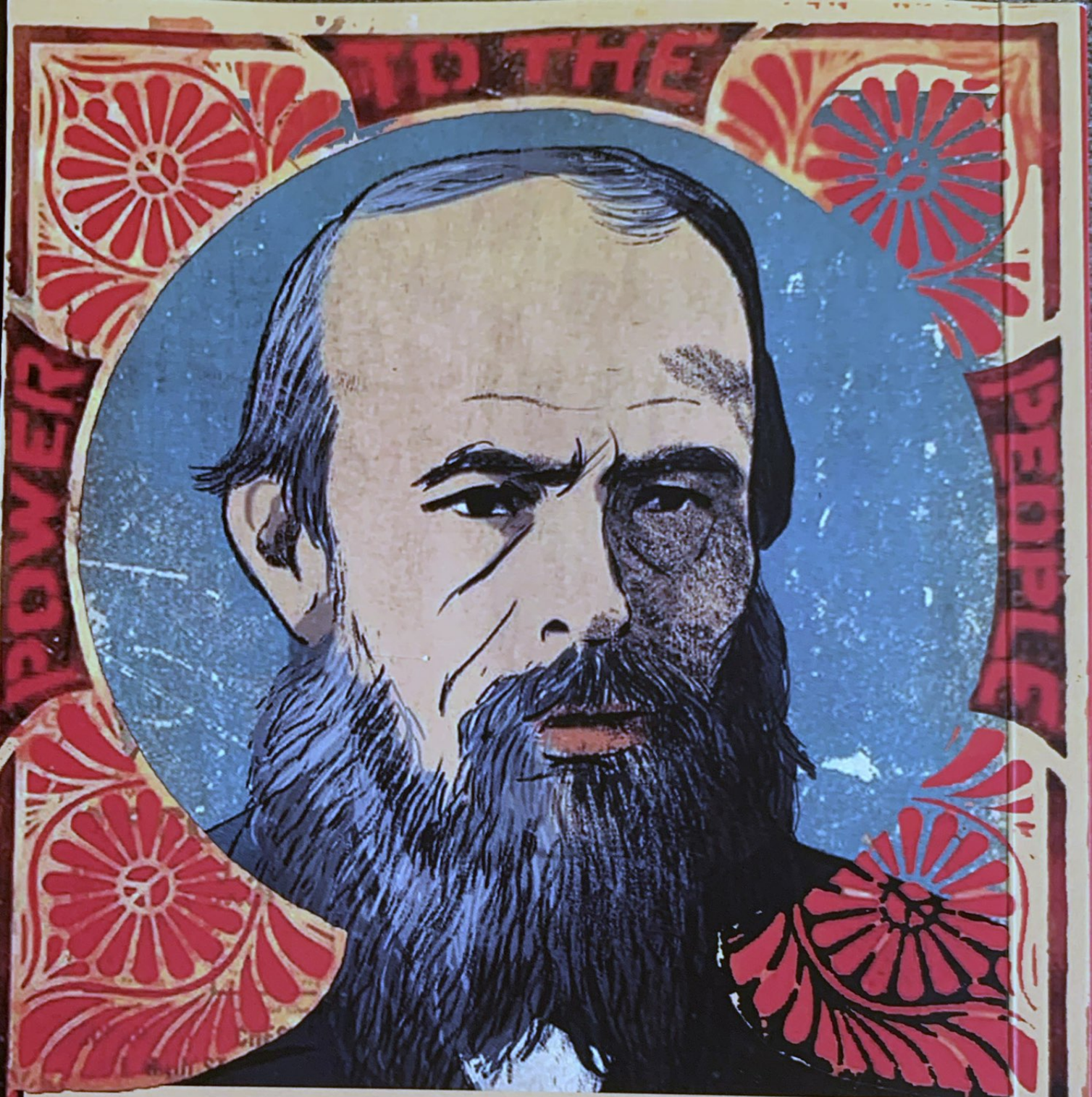

ليون شيستوف

دوستويفسكي والكفاح ضد البديهيات

ترجمة وتقديم: اسكندر حبش

philosophy

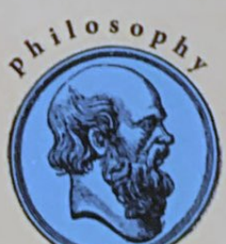

ليون شيستوف

دوستويفسكي والكفاح ضد البديهيات

ترجمة وتقديم: إسكندر حبش

(فلسفة)

خطوط وظلال
للنشـر والتـوزيـع

الأردن، عمّان، جبل الحسين، بناية (٢٠)
تلفون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+
email: dar5otot@gmail.com
ص.ب: 11190، عمّـان 925220 الأردن

دوستويفسكي والكفاح ضد البديهيات - ليون شيستوف
ترجمة وتقديم: إسكندر حبش - الطبعة الأولى، ٢٠٢١
جميع الحقوق محفوظة ©
تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي: خطوط

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the Publisher

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٠٢٠ /١١/٤٦٦٦)

١٩٧
شيستوف، ليون
دوستويفسكي والكفاح ضد البديهيات، ليون شيستوف/ ترجمة اسكندر حبش
.ـ عمان: خطوط وظلال للنشر والتوزيع ٢٠٢٠
(٧٢) صفحة
ر.إ.: (٤٦٦٦/ ١١/ ٢٠٢٠)
الواصفات: /دوستويفسكي//البديهيات// روسيا//الفلسفة/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الرقم المعياري الدولي: ISBN: 978-9923-40-134-7

ليون شيستوف

دوستويفسكي والكفاح ضد البديهيات

ترجمة وتقديم: إسكندر حبش

(فلسفة)

تذهـب دار خطـوط للنـشر والتوزيـع إلى أمـداء طَموحـةٍ عـبر الانتصـار للنصـوص الإبداعيـة المتجـاوزة، وإيـلاء الفعـل الجـماليّ اهتمامًـا كبـيراً بكونـه فَخًّـا بصريًّـا، ولَـذَّة كامِنـةً لِصِفـات الكتـابِ الـذي سـيوقع القـارئَ في لَـذَّة الصـورةِ و تمثُّلاتهـا المعرفيـة المتحركـة.

نقـارب بـين ثقافـاتٍ مختلفـةٍ مـن خـلال الترجمـة، مؤمنـين بـأن الاختـلاف عافيـة للقـارئ والمبـدع معـا.

خطوط حبر يفيض في كل الحقول .....

«أقدم لكم السيّد شيستوف. إنه الرجل الذي تجرأ على كتابة أعنف نقد وُجِه إليّ يوما - وهذا هو سبب صداقتنا».

إدموند هوسرل

مقدمة

قد لا تكون هناك علاقة لأي شعب في العالم، بأحد كتّابه، إلى هذه الدرجة من «العبادة» (إن جاز القول)، مثل علاقة الروس بكاتبهم الكبير دوستويفسكي. لقد تخطّى دوستويفسكي، على مرّ العصور، رمز أن يكون مجرّد كاتب، لديه الكثير من المريدين والتلاميذ والمحبيّن، ليتحول إلى رمز مطلق، أي إلى «ضمير» حقيقي، عرف كيف يصوغ رؤية ورؤيا جعلتاه يقف منفردا، في روسيا، على قمّة الكتابة والفكر وحتى الفلسفة بمعناها الضيق والخاص (وهي «فلسفة التراجيديا»، مثلما نحتها وعبّر عنها، الفيلسوف الروسي الكبير، صاحب هذا النص البديع الذي نترجمه هنا، ليون شيستوف).

فكاتب «الجريمة والعقاب»، هو أيضا «كبير فلاسفة» الروس، في العصر الحديث، وفق ما يعتبره العديد من المفكرين والكتّاب وحتى الفلاسفة (الروس) أنفسهم. قد لا يضاهيه في هذه المنزلة، سوى ليون تولستوي، وإن كان صاحب «الحرب والسلم»، كما العديد غيرها من الكتب الرائعة، يقف في مرتبة أقل بقليل من نظيره وابن بلده. دوستويفسكي هو «الكاتب المطلق»، الذي لا يزال إلى اليوم، يُمثل حالة خاصة، ليس في الـ «روسيا» وحدها، بل ربما في كثير من ثقافات العالم.

تمهيدي في الكلام هنا، ليس لمحاولة قراءة دوستويفسكي، بل هي جملة وصل، ليحطّ بي المطاف عند نص ليون شيستوف، الفلسفي، هذا، الذي كتبه في العام 1922. وإذا كنت أشير إلى سنة الكتابة، فلكي أؤكد على المرحلة التي جاء فيها هذا النص. إذ بعد الثورة البلشفية، غادر شيستوف روسيا، ليقيم فترة قصيرة في سويسرا، قبل أن يستقر في العام 1921، في فرنسا التي بقي فيها إلى تاريخ وفاته العام 1938. ففي هذه المرحلة الأخيرة من عمره، أي المرحلة الفرنسية، تطور فكر شيستوف، بالأحرى انتقل ممّا كان يسميه «فلسفة التراجيديا» (كما جاءت أعماله عن نيتشه وشكسبير ودوستويفسكي وغيرهم) إلى نقده القوي والعميق للعقلانية والبديهيات المتعارف عليها، وبالتالي، نقده للعلم والمنطق - اللذين يجد أنهما

دمرا الحسّ الإنساني - في سبيل العودة، إلى روحانية ما، قد تكون دينية، وفق البعض، لكن في العمق، هي هذه الوجودية التي اكتشفها عند كيركغارد، الفيلسوف الدانماركي.

اكتشاف شيستوف لـ كيركغارد جاء بفضل الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل، الذي التقى به وطلب منه أن يقرأه. وبرغم اختلاف فكر الرجلين، في تلك الفترة، إلا أن صداقة قوية نشأت بينهما، لدرجة أن هوسرل صرح لاحقا «إنه الرجل الذي تجرأ على كتابة أعنف نقد وُجه إليّ يوما. وهذا هو سبب صداقتنا». وبدوره وجد شيستوف، أن خلاف وجهات النظر الفكرية، لا يمنع هذه الصداقة، والشاهد نصه الأخير «تحيّة إلى فيلسوف عظيم» الذي كتبه بُعيد رحيل هوسرل الذي جاء قبل أشهر قليلة من رحيل شيستوف نفسه، في العام 1938. ولا بدّ أن نشير أيضا، أن الفضل في معرفة الفرنسيين، وبالتالي، معرفة بعض الأوروبيين، بفلسفة «الظواهراتية» (الفينومينولوجيا) - كما تبدّت في مشروع هوسرل الفلسفي - يعود إلى شيستوف نفسه، الذي عرّف عنها في العديد من المجلات الفلسفية الفرنسية، في تلك الحقبة. ولم يبق الأمر مجرد تعريف، إذ وقع تحت تأثير الفينومينولوجيا الكثير من الفلاسفة والمفكرين، لعلّ أبرزهم في تلك الفترة جان - بول سارتر، الذي

لم يُخفِ بدوره تأثير شيستوف عليه وامتنانه لفتح طريق الفلسفة «الظواهراتية» أمامه. (قد تطول اللائحة فيما لو أردنا أن نعدّد أسماء من وقعوا تحت تأثير «وجودية» شيستوف في تلك المرحلة).

من هذه النقطة «الوجودية»، ومن هذا البحث عن سبيل إلى عودة ما لحالة روحانية، ناقدة للعقلانية والبديهيات، علينا أن نقرأ نص شيستوف حول دوستويفسكي الذي يعيد قراءته بمفهوم آخر، ليُظهر كم أن الكاتب الروسي، كان متقدما في طرح الأسئلة الوجودية المضادة للبديهيات العقلانية. وبالتالي، يفتح شيستوف طريقا متفردا في استنطاق صاحب رائعة «الإخوة كرامازف»، ليشير إلى «حياة أخرى»، ربما حاول منطق ذاك العصر أن يتناساها، أو بالأحرى أن يدفع بها إلى «خارج خشبة المسرح». لكن علينا، بين ذلك كلّه، أن نتبيّن أمرا على درجة كبيرة من الأهمية: محاولة شيستوف في أن يتماهى مع «سيرة» دوستويفسكي. فالمقارنة بين «التراجيديات» هنا، ولو بشكل غير فاضح، بمعنى محاولة إخفائها، ليست سوى رغبة شيستوف في الحديث عن ذاك «الحادث التراجيدي الذي تعرض له، بخلاف المرض الذي أصابه في مطلع حياته». ما هو هذا الحادث؟ لا أحد استطاع تحديد ذلك، أو اكتشافه، على الرغم من أن الجميع يعرفون وجوده.

إخفاء السيرة الذاتية، هي من الأمور «المكروهة» في الفلسفة، إذ جاز التعبير. حاول الجميع تجنبها. ربما من «فتح الطريق» أمام هذا النوع من التساؤل الفلسفي، وبشكل معمق وحقيقي، قد يكون الفيلسوف الفرنسي جورج غوسدورف في كتابه (MÉMOIRE ET PERSONNE) بجزئيه «LA MÉMOIRE CON-CRÈTE» و«DIALECTIQUE DE LA MÉMOIRE»، وذلك في خمسينيات القرن الماضي. في أي حال، من هذا الاستنطاق، ثمة تأويلات، كان شيستوف بارعا فيها، لدرجة أن صديقه، الفيلسوف الروسي الآخر، نيقولاي برديائيف، والذي عاش أيضا في فرنسا، بعد ثورة أكتوبر الروسية، غالبا ما كان يقول له إن دوستويفسكي لم يقل كذا، «وإنك تأخذه إلى أمكنة لم يكن يتطرق إليها» (وفق ما يرويه بنجامان فوندان في كتابه «لقاءات مع ليون شيستوف»).

هذه القراءة، ليست في الواقع، إلا التمهيد ليصل شيستوف عبرها إلى مشروعه الأكبر، مثلما تبدّى في كتابه «أثينا وأورشليم» (آخر كتبه وقد صدر قبل وفاته بأشهر قليلة). العنوان وحده، يضع أمامنا، كلّ رغبة الفيلسوف الروسي: وضع العقل مقابل الروح في مواجهة مستمرة. أثينا تمثل العقلانية، بينما كانت «أورشليم» تمثل الروحانية (الدينية). هو الصراع الأبدي الذي

لا يـزال مسـتمرا إلى أيامنـا هـذه، وإن كان اتخـذ وجهـا عنيفـا في العقـود الماضيـة. لقـد انحـاز شيسـتوف إلى هـذه الروحانيـة، لكـن بالتأكيـد لم ينحـز إلى التعصـب الأعمـى الـذي نـراه عنـد بعـض الحـركات الدينيـة في حقبتنـا هـذه. كان الإنسـان هدفـه الأسـمى. هـذا الإنسـان الـذي سـحقته العقلانيـة والبديهيـات. لـذا يـأتي هـذا النـص ليذكرنـا ببعـض «البديهيـات»: حـق الإنسـان في أن يقـف عـلى نقيـض مـع «العقلانيـة»، ليبحـث في داخلـه عـن أسـباب وجـوده.

كلمـة أخـيرة: عـدا النـص الـذي نترجمـه هنـا، نجـد الكلمة التـي صـدّر بهـا بوريـس دو شـليتزير (كاتـب ومترجـم روسي وصديـق شيسـتوف) هـذه المقالـة حـين نُـشرت للمـرة الأولى في «المجلـة الفرنسـية الجديـدة» العـام 1922، وهـي تلـك التـي كان يـشرف عليهـا في تلـك الفـترة، أندريـه جيـد، وقـد جـاء (النـص) ضمـن ملـف خـاص بدوستويفسـكي. لـذا حـين يقـول دو شـليتزير إن شيسـتوف «شـخص مجهـول في فرنسـا» علينـا أن نضـع الجملـة في سـياقها التاريخـي. كذلـك نجـد، في آخـر الكِتـاب، بعـض نقـاط الاسـتدلال حـول سـيرة شيسـتوف وأبـرز المحطـات التـي مـرّ بهـا، وهـي مقالـة قصـيرة، مترجمـة عـن موقـع (meletout.net)، الصفحـة الخاصـة بـ شيسـتوف.

إسكندر حبش

دوستويفسكي

والكفاح ضد البديهيات

(نُشرت هذه المقالة في مجلة «La Nouvelle Revue Française»، المجلد XVIII، من العام 1922).

شيستوف: الروح المتفردة

بوريس دو شليتزير

لم نستطع بعد، نحن الروس، في مجال التأملات المنهجية، أن نُشكل مدرسة، لأننا لم نمتلك تقاليد بعد يمكن لها أن تُقارَن بالمدارس الفرنسية أو الألمانية أو الإنكليزية، حيث أن غالبية فلاسفتنا قد تعرّضوا دوما، ولغاية اليوم، لتأثيراتها وحيث لم ينجح بعضهم الآخر في وضع، قُبالتها، سوى بعض التقاليد الشرقية: الأفلاطونية الجديدة، الغنوصية، اللاهوتية... تعتمد العبقرية الروسية - وهذا ما يُشكل إحدى خاصياتها الأكثر أساسية - وإن كانت بذلك الأكثر تهورا - على الحدث الملموس دائما،

على الواقع المعيش؛ لتنطلق بعد ذلك في التأملات الأكثر تجريدا، الأكثر جرأة، لكن لكي تعود في نهاية الأمر - بعد أن تكون قد اغتنت بكلّ هذا الفكر المُكتسب - إلى الواقع عينه، الذي يُشكل في الحقيقة، نقطة انطلاقتها ونقطة وصولها. فمن يرغب في أن يحكم على الفكر الروسي، عليه أن يتوجه إذًا، لا إلى أساتذة الفلسفة، ولا إلى علماء الغنوصية والميتافيزيقيا، حيث نجد من بينهم - برغم كلّ شيء - رجالا ذوي المواهب العالية، من مثل زوسكي (Zossky) وفرانك (Franck) والعديدين غيرهما، بل عليه أن يتوجه إلى روائيينا كلّهم وشعرائنا ونقادنا، إلى الباحثين الذين يعملون «على الحيّ».

من هنا، نجد أن العمل الفلسفي والنقدي العائد لـــ ليون شيستوف، المجهول بشكل كامل في فرنسا، يملك هذه السمة الخاصة العائدة لهذا الأمر. بالتأكيد يُشكل شيستوف الروح الأكثر تفردا، الأكثر جرأة، الأعمق، بين الكتّاب الروس المعاصرين، وهو أيضا الأكثر تعقيدا والأصعب على التحديد.

«ما هو عليه موضوع الفلسفة، يتساءل شيستوف. هل علينا أن نبحث عن معنى كلّ شيء وأن نعمل بعناد لتشييد خطاب ديني متكامل على غرار لايبنتز كما على غرار العديد من المفكرين الشهيرين، أم أن علينا أن ننهمك في متابعة، وإلى النهاية، مصائر الأفراد الخاصة، وبقول آخر:

أن نطرح الأسئلة التي تستثني كلّ إمكانية للإجابة؟ لقد اختار شيستوف الطريق الثاني، بالرغم من مصاعبه ومخاطره: لقد ارتبط بالفرد، بالملموس، بالحدث المتفرد، الخاص. رغب برغسون (هنري) بأن ينادي الفيلسوف على «الروائي الشجاع» الذي «يمزق الشبكة التي نسجت خيوطها بمهارة من أنانا التقليدية لكي يظهر لنا، تحت سِمة هذا المنطق الظاهر، عبثية أساسية». هذا بالضبط، ما قام به شيستوف: لذلك توجه، تدريجيا، إلى شكسبير وإبسن وتولستوي دوستويفسكي وتشيخوف ونيتشه؛ لم يهتم بهم بكونهم هم أنفسهم، بل بكونهم هذه الشخصيات الحيّة وبشخصيات أبطالهم، مثلما يظهرون عليه في أعمالهم. يضغط عليهم، يسائلهم، يعذبهم، بدون شفقة، لا ليستخرج من ذلك الدروس، والعِبَر العامة. بل ليجعلنا، نحن، نمسك بذلك - وهي تتحرك بعد - لنمسك بهذا الواقع الخبيء بعمق، ليجعلنا نحسّ ونرى فجأة، حقيقة معتمة تهرب من قبضة العقل.

إن «التهور» في أبحاثه، الجرأة المطمئنة في علامات استفهامه، جلبت له الاتهامات بالشكوكية والكلبية. إن شكوكيته، في واقع الأمر، ليست سوى أسلوب، طريقة تفحص؛ وفق هذا القياس يمكن لنا أن نُقربه من سقراط، الذي يتشارك معه في العديد من النقاط المشتركة. يشك شيستوف، لكنه لا يقبع في حَجْر هذا

الشك، إذ لا يشعر بالاستساغة داخله: إنه يبحث دائما، أحيانا وهو «ينتحب» لكي نستعمل هنا تعبير باسكال الذي غالبا ما يشير إليه (في كتاباته)، وطورا وهو يمزح، وهو يضحك من نفسه ومن الآخرين، لكنه دائما شغوف وقلق.

أساتذته هم نيتشه، نيتشه الإنساني، الإنساني جدا كما بدا في «المعرفة المرحة»؛ من ثم دوستويفسكي، تولستوي، باسكال، وقد ساعده هؤلاء في اكتشاف شخصيته الخاصة، الذين حصّنوا شجاعته، جرأته، والذين سكبوا داخله ذلك الظمأ الذي لا يرتوي للحرية. قادته أبحاثه، في مرحلة لاحقة، إلى دراسة أفلوطين، القديس أغسطين، روحانيي القرون الوسطى، لوثر.

أسلوبه شديد البساطة، وحتى شائع، من دون زخرفات، من دون أثر للادعاءات المعرفية وذو صفاء مدهش، وقد وضعه ذلك في مصاف أفضل الناثرين الروس. بيد أن البساطة هذه، تكمن على السطح؛ فتحت هذه النبرة المألوفة يكمن فكر دقيق بشكل غير مألوف، فكر مشدود دوما، يحفر الأعماق ليبحث فيها. ما من شيء أوضح، يبدو أسهل من أفوريسم، من دراسة لـ شيستوف بالنسبة إلى الأرواح الذكية؛ وما من شيء أعقد، جالب للغموض بالنسبة إلى أولئك الذين يحاولون الدخول إلى قلب العمل بشكل أكبر.

بـدأ شيسـتوف مـع «شكسـبير وناقـده براندِيـس»، ثـم تتابعـت أعمالـه - عـلى فـترات متفاوتـة: «الخـير في عقيـدة نيتشـه وتولسـتوي»، «دوستويفسـكي ونيتشـه»، مجموعـة أولى مـن التوقيعـات (أفوريسـمات) بعنـوان «ذروة الاقتـلاع مـن الجـذور» ومـن ثـم كتابـين فلسـفيين نقديـين: «جدالات واسـتنتاجات» و«السـهرات الكبـيرة»؛ وبعدهـا «ألـف ليلـة وليلـة» و«عـن جـذر الأشـياء». النـص هـذا، حـول دوستويفسـكي، الـذي ننـشره هنـا، هـو مقالـة مختـصرة جدا (مـع موافقـة الكاتـب)، مـن دراسـة موسـعة، كان شيسـتوف نشرهـا بمناسـبة المئويـة الأولى لـولادة دوستويفسـكي في مجلـة «الحوليـات المعـاصرة» الروسـية.

Τίς δ' οἶδεν εἰ τὸ ζῆν μέν ἐστι
κατθανεῖν, τὸ κατθανεῖν δὲ ζῆν.

Εὐριπίδης (*)

(*) «من يعرف، من الممكن أن تكون الحياة هي الموت/
والموت هو الحياة»

يوريبيدس

I

في إحدى حواراته، يقوم أفلاطون، بجعل سقراط، يردّد هذه الكلمات (كلمات يوريبيدس). سقراط الرجل الأكثر حكمة بين البشر، ذاك الذي هو نفسه، مَن خلق نظرية الأفكار العامة واعتبر، أول من اعتبر، أن صفاء أحكامنا ووضوحها هي بمثابة مؤشر عن صحتها. منذ الأزمنة الغابرة، والبشر الأكثر حكمة، يعيشون في هذا الجهل الملغز؛ وحدهم البشر العاديون يعرفون جيدا ما هي عليه الحياة وما هو عليه الموت. كيف أمكن لأكثرنا حكمة أن يترددوا حول ذلك بينما نجد أن أصحاب الأرواح العادية لا يجدوا فيها أي صعوبة؟ ولِمَ نجد دائما إذًا، أن الصعوبات هي حكرٌ على الأكثر حكمة؟ تفرض «العدالة» بأن تكون هذه المعرفة أو حتى هذا الجهل

وقفا على كلّ الناس. هل قلت العدالة! إنه المنطق عينه الذي يفرض ذلك، إذ من العبث أن يجيد البعض تمييز الحياة من الموت، بينما يبقى الآخرون محرومين من هذه المعرفة؛ فمن يمتلكها نجده مختلفا بشكل كامل عن أولئك الذين لم يحظوا بها ولا نمتلك حينها الحق في اعتبارهم أنهم ينتمون جميعا الى النوع البشري. وحده البشري هو هذا الذي يعرف ما هي الحياة وما هو الموت. وذاك الذي لا يعرف، ذاك الذي يبتعد أكثر فأكثر، الذي وللحظة واحدة يتوقف عن القبض على الحدود الفاصلة بين الحياة والموت، هذا هو ذاك الشخص الذي يتوقف عن أن يكون إنسانا لكي يصبح... لكي يصبح ماذا؟

ومع ذلك، ثمة مكان هنا، لنضيف بأنه منذ الولادة، يعرف البشر بأسرهم، كيف يُميّزوا، جيدا، الحياة عن الموت. لا يصل الجهل - لمن هم منذورون له - إلا في مرحلة متقدمة فقط، وإن لم يخدعنا أيّ شيء، نجده يصل فجأة، ولا نعرف لا من أين ولا كيف. بيد أن ثمة شيئا آخر إضافيا. هذا الجهل ليس سوى أمر متقطع: إذ نجده يمّحي ليترك مكانه للمعرفة الطبيعية بشكل فجائي تماما كالطريقة التي ظهر بها. يعرف يوريبيديس وسقراط وكلّ الذين يجدون أنفسهم منذورين لحمل عبء الجهل الأسمى المقدس، يعرفون ما هي الحياة

وما هو الموت. لكن يحدث لهم أحيانا أن يشعروا، وبطريقة استثنائية، بأن معرفتهم العادية قد أهملتهم. ما يعرفه كلهم وما يقبلون به جميعا هو أن ما يعرفونه بأنفسهم قبل لحظة، هو أن الموافقة الجماعية كانت تتأكد وتُبرّر، وهذا ما كان يفقد كلّ معنى له بنظرهم. إذ صاروا يملكون معرفتهم الخاصة، وإن كانت غير مبررة وغير مبرر لها وغير مقبولة بالنسبة إلى الآخرين. هل يمكن إذا، أن نأمل في الواقع، بأن يكون شك يوريبيديس مقبولا بشكل جماعي؟

يروي كتاب قديم عن ملاك الموت، الذي يهبط نحو الإنسان لكي يفصل الروح عن الجسد، بأنه مغطى بالأعين. ما حاجته إلى كلّ تلك الأعين؟ ظنّي أنها ليست له: يلاحظ ملاك الموت أحيانا، أنه وصل باكرا جدا، وأن نهاية هذا الشخص لم تحن بعد؛ في هذه الحالة، لا يقبض على روحه، بل حتى أنه لا يبين له، بل يترك له زوجا من تلك الأعين العديد التي تلف جسده. فيتعرف الإنسان حينذاك - زيادة عمّا يراه البشر الآخرون وعمّا يراه هو نفسه بعينيه الطبيعيتين - إلى أشياء جديدة وغريبة، يراها بشكل مختلف عمّا كانت عليه، لا مثلما يراها البشر العاديون، بل مثلما يراها سكان «العوالم الأخرى»، بمعنى أنها موجودة بالنسبة إليه، لا «بالضرورة»، بل «بحرية». إنها موجودة وغير موجودة في الوقت عينه،

تظهر حين تختفي وتختفي حين تظهر. إذًا - وكما كلّ أعضاء حواسنا الأخرى، وحتى عقلنا، التي على علاقة وثيقة برؤيتنا العادية - تبدو التجربة الإنسانية بأسرها، أكانت فردية أم جماعية، مرتبطة فيما بينها؛ عندئذ تبدو الرؤى الجديدة سخيفة، خيالية وكأنها منتوج ذاكرة معطوبة. خطوة واحدة، زيادة عن ذلك، وسيكون الجنون، مثلما يتراءى الأمر، لا الجنون الشعري ولا جنون الوحي، الذي كُتِب عنه الكثير في الأعمال الفلسفية وفي علم الجمال والذي - تحت مسميات «إيروس» و«ماني» و«النشوة» - غالبا ما وُصف وعُلَل، حين توجب الأمر ذلك، بل هو الجنون الذي تتمّ معالجته في «المخابئ». الأمر إذًا، صراع بين الرؤيتين، صراع مخرجه أكثر إشكالية وأكثر غموضا من بداياته.

بالتأكيد، كان دوستويفسكي واحدًا من أولئك الذين امتلكوا هذه النظرة المزدوجة. لكنّ السؤال متى زاره ملاك الموت؟ أكثر الحالات الطبيعية تكمن في افتراض، أن ذلك حدث، حين كان يستمع، عند كعب المقصلة، قراءة الحكم عليه بالموت. ومن المحتمل أيضا أن الافتراضات «الطبيعية» لا مكان لها هنا أيضا. إننا ندخل في المجال المعادي للطبيعي، الخيالي بامتياز وإذا ما أردنا أن نَلحَظ في ذلك شيئا ما، يتوجب علينا أن نتخلّى عن كلّ الأساليب، عن كلّ التقنيات التي لا تزال

تعطي لغاية هذه اللحظة لحقائقنا ولمعارفنا، يقينيات مضمونة. ربما يتطلب منّا الأمر تضحية أكثر أهمية. لذا يتوجب علينا، ربما، بأن نكون مستعدين لقبول أن اليقين ليس سابقا أبدا للحقيقة، أو بتعبير أفضل، ليس لليقين أي شيء مشترك مع الحقيقة. يحدث أن كلّ سحر، كلّ جذب لهذه الحقائق تتلخص بالضبط فيما تقدمه لنا من اليقين، فيما يجعلها تأمل بإقناعنا ممّا نسميه البديهيات.

لا يعود الأمر إذا إلى انتظاره تنفيذ الحكم، حين زار ملاك الموت دوستويفسكي. وليس أيضا حين كان يعيش في سجن الأشغال الشاقة. فكتابه «ذكريات من منزل الموتى»، وهو واحد من أفضل أعمال دوستويفسكي، يشهد على ذلك.

مؤلف هذه الذكريات كان لا يزال مليئا بالآمال. يتألم، يتألم بشكل مرعب، بيد أنه كان لا يزال يتذكر دائما بأن خارج جدران هذا السجن، هناك بعد، حياة أخرى. زاوية السماء الزرقاء التي كان يلمحها من فوق جدران السجن، تشكل له وعدا بالحرية. سيجيئ وقت سيرحل فيه السجن والوجوه الموسومة والشتائم الخسيسة، الضربات، الحرّاس، الوساخة، السلاسل الحديدية، سيمضي كل ذلك ليبدأ وجود جديد، وجود نبيل، فارع. «لن أبقى هنا إلى الأبد»، كان يردد على مسامعه، باستمرار؛

«قريبا، قريبا جدا سأكون هناك». وهناك هي الحرية. والحياة الحقيقية، الغنيّة، المليئة بالمعاني، لا تُوجد إلا هنا، حيث يرى الإنسان من فوقه، لا زاوية سماء صغيرة، بل قبة هائلة، هنا، حيث لا جدران، بل هذا المكان الذي ينتد فيه فضاء لا نهائي، هنا، حيث الحرية غير محدودة - في روسيا، في موسكو، في بطرسبرغ، وسط الناس الأذكياء، الطيبين، الفعالين، الأحرار.

II

أنهى دوستويفسكي فترة الحكم عليه؛ أنهى أيضا خدمته العسكرية. كان في تفير (Tver) ومن ثم انتقل إلى بطرسبرغ. تحقق كلّ ما كان ينتظره. إنه رجل حرّ، مثل كلّ البشر الذين كان يحسد نصيبهم حين كان مُقيّدا بالسلاسل. لم يتبق له لحظتها سوى أن يحقق الالتزامات التي اتخذها في السجن بحق نفسه. علينا أن نصدق بأن دوستويفسكي لم ينسَ سريعا هذه الالتزامات، «برنامجه»، وبأنه قام بأكثر من محاولة يائسة ليرتب حياته بشكل لا تُستعاد فيه «السقطات القديمة والأخطاء القديمة» مطلقا. لكن يبدو أنه كلّما اجتهد في ذلك، كلّما كان نجاحه أقل. وسرعان ما انتبه بأن الحياة الحرّة تُشبه أكثر فأكثر وجود السجن وبأن «السماء الزرقاء بأسرها»

التـي تـراءت لـه في السـجن بأنهـا غـير محـدودة، كانـت تضغـط عليـه وتسـحقه مثلهـا مثـل سـقوف السـجن الواطئة والخانقـة؛ وبـأن المُثـل التـي سـاعدته في تخفيـف الـوطء عـن نفسـه وقـت كان يعيـش بـين آخـر البـشر، بـأن هـذه المثـل لا ترفـع الإنسـان، ولا تحـرره، بـل تكبّلـه وتذلـه مثلهـا مثـل السلاسـل التـي كانـت تُقيّـده في السـجن. تضغـط عليه السـماء، تكبلـه المثـل والوجـود الإنسـاني برمتـه ليـس سـوى نـوم ثقيـل، أليـم، مـليء بالكوابيـس.

كيـف حـدث ذلـك؟ كان لا يـزال، للأمـس القريـب، يكتـب «ذكريـات (٥) مـن منـزل المـوتى»؛ تـراءت لـه حيـاة المحكومـين بالأشـغال الشـاقة بمثابـة كابـوس؛ بيـد أنـه يكفي نـزع السلاسـل، فتـح أبـواب السـجن ليصبـح الإنسـان حـرًا ولتصـل الحيـاة إلى مداهـا. كانـت عينـاه تشـهدان عـلى ذلك، كذلـك جميـع حواسـه الأخـرى وحتـى العقـل «الإلهـي». لكـن، وخلافـا لـكل هـؤلاء الشـهود، انتصـب شـاهد آخـر حطمهـم كلهـم.

لم يكـن مـن الممكـن لـ دوستويفسـكي أن يرفـض هـذه الهبّـة التـي أعطيـت لـه، تمامـا مثلـما لا يمكـن لنـا أن نرفـض الهدايـا التـي يقدمهـا لنـا مـلاك الحيـاة. كلّ مـا نملكـه، كلّ مـا نتلقـاه، لا نعـرف مـن أيـن مصـدره ولا ممّـن. كل ذلـك مُنِـح لنـا، حتـى قبـل أن نمتلـك القـدرة عـلى طـرح الأسـئلة وعـلى الإجابـة عنهـا. والرؤيـة الثانيـة التـي أعطيـت لـ

دوستويفسكي، والتي لم يطلبها، كانت أيضا بطريقة غير متوقعة، فجائية بقدر الأولى.

اكتشف دوستويفسكي بطريقة مفاجئة بأن السماء وجدران السجن، المُثل والسلاسل، لا تتعارض فيما بينها أبدا، مثلما كان يريد، مثلما كان يفكر في البداية، مثلما كان يريد ويفكر مثل كل الناس الطبيعيين. ليسوا متعارضين لأنها تحوي المعنى عينه. ما من سماء، ما من سماء في أي مكان، ليس هناك سوى أفق خفيض ومحدد. ما من مُثل، ليس هناك سوى سلاسل، صحيح أنها غير مرئية، إلا أنها تمسك بالإنسان بشكل أشدّ وأقوى من الحديد.

ما من فعل بطولي، ما من «عمل جيد»، يمكن له أن يفتح - أمام الإنسان - أبواب هذا المكان الخاص «بالحجز مدى الحياة». لذا بدت له أمنياته، التي طلبها وهو في السجن، أمنيات مدنسة. ما حدث داخل نفسه، يشبه تقريبا ما حدث لـ لوثر حين تذكر برعب الأمنيات التي تمتم بها وهو يدخل إلى الدير: «هنا! أنقذ الله حياتي وهنا أذلها بالكامل» (Ecce ! Deus, tibi vo-veo impietatem et blasphemiam per totam meam vita)

إنها هذه «الرؤية» الجديدة التي تشكل موضوعة كتاب الصوت السفلي، التي تشكل واحدا من أكثر

الأعمال روعة في الأدب الكوني. لا تريد الغالبية ولا ترغب لغاية الآن، في أن ترى، في هذا الكتاب الصغير، سوى درس. هناك، في مكان ما، في السراديب، توجد كائنات بائسة، مريضة، غير طبيعية، لعنها القدر، وهي في غضبها العاجز تصل إلى آخر حدود العدم. ومع ذلك، فإن هذه الكائنات، هي نتاج عصرنا؛ ولم يتبق منها أحد في سنواتنا الأخيرة. دوستويفسكي نفسه يقترح علينا وجهة النظر هذه عبر الملاحظة التي وضعها في بداية كتابه. من المحتمل أنه كان مخلصا في هذه اللحظة، وصادقا. هي هكذا نوع الحقائق التي تظهر في عيون الرجل السفلي (تحت الأرض)، حتى بفرادتها، لكي نتمكن من توضيح قواعدها. بيد أنه ليس من الضروري، بل من المستحيل حتى، أن نجعلها حقائق جيدة، في جميع الحالات ومن أجل الجميع. حتى أن الذي اكتشفها لا يمكنه أن يمتلكها. دوستويفسكي نفسه، لم يكن واثقا، ولغاية أواخر أيامه، بأنه رأى حقا ما وصفه في كتاب «الصوت السفلي». وهذا ما يشرح لنا الأسلوب السردي الغريب في هذا الكتاب؛ إذ بسبب ذلك، نرى أن كل جملة من جمله تُكذب الجملة السابقة وتسخر منها، هنا يكمن تفسير نوبات الحماسة هذه، والفرح المتعذر شرحه والمتقطع عبر شحنات من انفجارات اليأس، المتعذر شرحه بدوره. يتراءى وكأنه كان بدون قدم، ليسقط في هاوية بلا قعر. إنها غبطة الطيران، الخوف من عدم الشعور مجددا

بـالأرض تحـت أقدامـه، والرعـب مـن الفـراغ.

في أولى صفحـات الكتـاب، نشـعر بـأن ثمـة قـوة مدهشـة، غـير طبيعيـة (ربمـا هـذه المـرة لم نخطـئ في حكمنـا - لتتذكـروا مـلاك المـوت) تمسـك بالكاتـب وتحملـه معهـا. إنـه في حالـة انخطـاف، إنـه «خـارج نفسـه»، يركـض ولا يعـرف أيـن، ينتظـر ولا يعـرف مـاذا. اقـرأوا هـذه الأسـطر التـي ينتهـي بهـا الفصـل الأول:

«نعـم، وا أسـفاه! إن إنسـان القـرن التاسـع عـشر يجـب ألا تكـون لـه عزيمـة، إن إنسـان القـرن التاسـع عـشر مكـره عـلى ألا يكـون لـه طبـع قـوي. أمـا الإنسـان الـذي لـه شيء مـن ذلـك، أمـا الإنسـان الفعـال، فهـو في جوهـره محـدود لا قيمـة لـه. إن الأربعـين التـي عشـتها قـد رسـخت هـذا الاقتنـاع في نفـسي. ذلـك أن عمـري أربعـون عامـا؛ والأربعون أليسـت الحيـاة كلّهـا؟ أليسـت هـي الشـيخوخة منـذ الآن؟ إنـه لمـما ينـافي اللباقـة ويجـافي الأخـلاق ويهبـط بالمـرء إلى حضيـض الصغـار أن يعيـش أكـثر مـن أربعـين عامـا. مـن ذا الـذي يعيـش أكـثر مـن أربعـين عامـا؟ هـلا أجبتـم بصراحـة! سـأقول لكـم أنـا: ان الحمقـى والأوغـاد هـم الذيـن يعيشـون أكـثر مـن أربعـين عامـا. لأجهـرن بذلـك لجميـع أولئـك العجائـز، لجميـع أولئـك الشـيوخ المحترمـين، لجميـع تلـك الـرؤوس التـي اشـتعلت شـيبا، فصـارت كالفضـة لونـا وتطيبـت بالعطـور. لأجهـرن بذلـك صائحـا أمـام العـالم كلـه.

ان من حقي أن أقول هذا الكلام، لأنني سأحيا أنا حتى السنة الستين من العمر! حتى السنة السبعين! سأصل إلى الثمانين! انتظروا لأسترد أنفاسي!»... (*)

(*) دوستويفسكي، في قبوي - الأعمال الأدبية الكاملة المجلد 6، ترجمة الدكتور سامي الدروبي، الطبعة العربية الثانية دار ابن رشد، بيروت، 1985 - ص: 24 - 25

III

في الواقع، ومنذ البداية، علينا أن نتوقف ونسترد أنفاسنا. ويمكن لهذه الكلمات أن تلعب دور الخاتمة في كلّ فصل من الفصول اللاحقة: دعوني أسترد أنفاسي. دوستويفسكي نفسه وقارؤه يعانيان من النفس المقطوع بسبب هذا الاندفاع الحاد، المتوحش لهذه الأفكار «الجديدة». إنه لا يدرك ما يختبره، ولِمَ هذه الأفكار. أهي فعلا أفكار؟ لمن يوجه هذه الأسئلة؟ إذ ما من أحد يمكن له الإجابة عليها؛ لا الآخرون ولا حتى دوستويفسكي نفسه يمكن لهم أن يتيقنوا بأنه يمكن لهذه الأسئلة أن تطرح حقا، أن يكون لها معنى ما. لكن من المستحيل أيضا أن تُبعد وحتى يتراءى أحيانا أنه يجب عدم إبعادها. أعيدوا قراءة هذه الجملة، على سبيل المثال: « إن إنسان القرن

التاسع عشر مكره على أن لا يكون له طبع قوي؛ أما الإنسان الفعّال، فهو في جوهره محدود لا قيمة له».
أهو يقين راسخ أم بالأحرى تجميع كلمات فارغة من المعنى؟ للوهلة الأولى، لا يبدو الأمر أنه مسألة كلمات! لكن اسمحوا لي أن أذكركم بأن أفلوطين (وأعتقد أنّ دوستويفسكي لم يسمع به إطلاقا) أطلق الفكرة عينها، وبالتأكيد جاءت بشكل آخر. هو أيضا، اكدّ، بأن الرجل الفعال لا قيمة له مطلقا، بأن جوهر الفعل عينه يشكل تأطيرا، تحديدا. ذاك الذي لا يستطيع، الذي لا يرغب في «التفكير»، في «التأمل»، هو ذاك الذي يفعل. لكن أفلوطين، حين قالها، كان «خارجا عن إرادته» وبينما قالها دوستويفسكي بطمأنينة كبيرة، تقريبا مثل شيء يخرج منّا بانسياب، كشيء يعرفه الجميع، يتقبله الجميع. من المحتمل أن يكون محقا: حين نرغب في قول أمر يخالف الأحكام المشتركة عند الجميع، فمن الأفضل ألا نقوله بصوت مرتفع. إذ أن الإشكالية، المستحيل عينه المقدم على أنه أمر بديهي عبر ذاته، غالبا ما يتمّ قبوله، بسهولة، كأنه هكذا.

أفلاطون بدوره كان يعرف «القبو»، إلا أنه أطلق عليه اسم «الكهف»؛ وبذلك خلق المثل المدهش الشهير في العالم كلّه. من الجيد أنه لم يخطر على بال أحد أن يكون كهف افلاطون «قبوا» وبأنه - أي أفلاطون - كان

كائنا طبيعيا، مريضا، حادّ الطباع، واحدا من أولئك الذي يتوجب على الآخرين، على البشر الطبيعيين، أن يتخيّلوا لهم نظريات وعلاجات، الخ. بينما نجد أن ما حدث لـ دوستويفسكي في قبوه، هو الأمر عينه الذي حصل لـ أفلاطون في كهفه: لقد تفتحت عيناه الجديدتان ولم يكتشف الرجل سوى الظلال والأشباح، هنا حيث «الجميع» يرون الواقع؛ لقد لمح الحقيقي، الواقع الوحيد الذي هو غير موجود بالنسبة إلى «الجميع».

أنتيستنيس (Antisthène)، الذي اعتبر نفسه تلميذا لـ سقراط، كان يقول إنه يفضل أن يفقد عقله من أن يشعر بالمتعة («أُفضّل الجنون على المتعة»)، بينما ديوجين، الذي كان رفاقه ينادونه بـ سقراط المعتوه، كان يخشى أكثر ما يخشاه في هذا العالم، الشخص المتوازن، المتكامل. يبدو لنا فعلا وتحت بعض علاقات الحياة، بأن ديوجين يكشف لنا طبيعة سقراط الحقيقية، الأكمل، أكثر مما تكشفه حوارات أفلاطون اللامعة. في أي حال، من يريد أن يفهم سقراط، عليه أن يدرس وجه ديوجين الكريه تماما مثلما عليه أن يدرس السمات الكلاسيكية المدهشة لـ افلاطون. يمكن لـ سقراط المعتوه أن يكون فعلا ذاك الذي يحدثنا عن نفسه بإخلاص. فالإنسان السليم الروح - الأحمق منه كما الذكي - لا يحدثنا في واقع الأمر عن نفسه، بل عمّا يمكن له أن يتبدى

ضروريا ومفيدا للجميع. فحالته الصحيّة تفترض ذلك بالضبط أي أن يُصدر أحكاما مفيدة للجميع، وألا يرى إلاّ ما هو مفيد للجميع وفي جميع الأحوال. بيد أن الكلبيين كانوا مرّوا من دون أن يتركوا أثرا في التاريخ. ما يسِم التاريخ فعلا، أنه مع فن مدهش، إنساني تقريبا، واعٍ، يزيل أثر كل ما يتأتى بشكل غريب في هذا العالم، كل ما هو مدهش. غاية علم التاريخ الأساسية، مثلما نفهمها دائما، تكمن في إعادة إحياء الماضي على شكل سلسلة من الأحداث المرتبطة فيما بينها عبر السببية. بالنسبة إلى المؤرخين، لم يكن سقراط، وليس عليه أن يكون سوى «رجل عام». ما كان يمتلكه في داخله من شيء سقراطي خاص به «لا مستقبل له» وهو غير موجود بنظر المؤرخ. لا يعير المؤرخ اهتماما ما إلا لذاك الذي دخل في مجرى الزمن ليغذيه؛ أما الباقي فلا يعنيه. المهم بالنسبة إليه، هو سقراط «الرجل الفعّال»، ذاك الذي ترك آثارا عن وجود في إعصار الحياة الاجتماعية. اليوم أيضا، لا زلنا نشعر بالحاجة غلى «أفكار» سقراط. نحن بحاجة لبعض أفعاله التي يمكن أن تشكل لنا أمثلة، عن صلابته، عن هدوئه وهو يواجه الموت. أما فيما يخص سقراط نفسه، من منّا بحاجة إليه؟ وهذا بالضبط، لأنه لم يكن من الضروري لأحد، ان يمضي بدون أن يترك اثرا. فلو كان ذلك ضروريا، لكان هناك «قانون» ليحفظ ذلك.

IV

كان دوستويفسكي يرى أيضا الحياة يعينيّ مؤرخ، أي بعينين طبيعيتين. لكن حين أعطي عينين أخرتين، رأى شيئا آخر. لم يكن «القبو» أبدا هذا العش البائس حيث جعل الكاتب بطله يعيش فيه، مثلما لم يكن أيضا وحدته. بل على العكس - وعلينا ان نردد ذلك بطريقة دائمة - يبحث دوستويفسكي عن الوحدة لكي يهرب، لكي يحاول أن يهرب من «القبو» (من «كهف» أفلاطون) الذي يجب على الجميع أن يعيشوا فيه، الذي يعتبره الجميع بمثابة العالم الواقعي الوحيد، بمثابة العالم الوحيد الممكن، بمعنى أنه العالم الذي برهنه العقل. هذا أيضا ما نلاحظه عند رهبان العصور الوسطى. كانوا يكرهون أكثر من أي شيء آخر هذا التوازن العقلي

الـذي يظهـر بالنسـبة إلى العقـل بمثابـة هـدف الحيـاة الأعـلى عـلى هـذه الأرض. لم يكـن هـدف التزهـد أن نهـزم الجسـد، مثلـما نعتقـد بشـكل عـام. كان هـدف الرهبـان والمتزهديـن، وقبـل أي شيء آخـر، ان ينزعـوا أنفسـهم مـن هـذا «الوجـود الـكلّي» (الـذي يتحـدث عنـه رجـل القبـو عنـد دوستويفسـكي، ينزعـوا أنفسـهم مـن هـذا الوعـي المشـترك الـذي تطلـق عليـه الكلـمات المدرسـية والفلسـفية عبـارة «الوعـي بشـكل عـام». لقـد حـدد إينيـاس دو لويـولا (Ignace De Loyola) القاعـدة الأساسـية لـ «التماريـن الروحيـة» (spiritualia Exercitia) بهـذا الشـكل: «كلـما وجـد نفسـه معـزولا ومتوحـدا، كلـما وجـد نفسـه متكيفـا في البحـث عـن الخالـق سـيده وفهمـه». (Quanto se magis reperit anima segregatam et solitariam, tant aptiorem se ipsam reddit ad quaerendum intelligendumque Creatorem et Dominum suum)

الوعـي المشـترك، هـا هـو العـدو الرئيس لـ دوستويفسـكي. كان سـبق لأرسـطو أن أعلـن أن الإنسـان الـذي ليـس بحاجـة إلى أحـد، سـيصبح الهـا أو حيوانـا متوحشـا. دوستويفسـكي أيضـا، مثلـه مثـل القديسـين الذيـن كانـوا ينقـذون أرواحهم، سـمع - بـدون توقـف - صوتـا غامضـا يهمـس لـه: «لتجـرؤ عـلى ذلـك! ابحـث عـن الصحـراء، عـن الوحـدة. سـتكون فيهـا حيوانـا متوحشـا أو الهـا. لا شيء مؤكـد مسـبقا: تخـلى

قبلا عن الوعي المشترك وسنرى بعد ذلك؛ أو بالأحرى، سيكون الأمر أسوأ: إن رفضت هذا الوعي، ستتحول، في البداية، إلى حشرة، ولاحقا، بعد وقت، متى؟ لا أحد يعلم - سيحدث التحول الأخير». ومع ذلك، فهدا الانمساخ الأخير، ليس مؤكدا. في الواقع، ليس من البداهة انه يمكن للإنسان ان يتحول إلى حيوان متوحش، ولكن أليس معطى له أن يصبح الها؟ ثمة تجربة عمرها الاف السنين موجودة هنا وتؤكد لنا بأن البشر تحولوا في أغلب الأحيان إلى حيوانات متوحشة. لكن لم نجد لغاية الآن أي الهة بينهم. اقرأوا اعترافا هذا الرجل التحت أرضي. في كلّ صفحة يروي لنا نظرته الخاصة للأمور وهي غير معقولة تقريبا.

« في الحقيقة، أنت تعرف ما الذي أحتاجه: أن تذهبوا جميعا إلى الجحيم، هذا ما أحتاجه فعلا. أحتاج إلى طمأنينتي. لكن هل تعلم بأنه لكيلا أشعر بالانزعاج، سأبيع الكون بأسره على الفور مقابل كوبيك واحد! ليهلك العالم بأسره أم أنْ لا أشرب الشاي؟ سأقول: ليهلك العالم بأسره ما دمت أشرب الشاي. هل تعرف ذلك أم لا؟ حسنا، أنا أعرف بأنني شخص وغد، بائس، كسول، أناني».

وفي الصفحة اللاحقة، نجد من جديد:

«أنا أكثر الديدان حقارة، والأكثر سخافة، والأكثر تفاهة، والأكثر حسدا، والأكثر غباء على وجه الأرض».

مليء الكتاب باعترافات مماثلة. لكن لتقرأوا كتب، اعترافات القديسين الكبار؛ كلهم يعتبرون أنفسهم بمثابة الكائنات الأفظع (دائما يستعملون أفعل التفضيل)، الأبشع، الأضعف، الأحمق من جميع المخلوقات. ليس مردّ ذلك إلى افراط في التواضع؛ بل كانوا يجدون أنفسهم حقا على هذه الشاكلة. القديس برنار، القديسة تيريزا كانا مثل غيرهما، يرتعبون من أنفسهم.

لدينا كل الأسباب التي تدفعنا إلى الاعتقاد بأنه حين كان دوستويفسكي يصف قبوه، كان لا يعرف الكثير عن كتب القديسين. لم يشعر بدعم أي سلطة له، ولا في أي تقليد. كان يتصرف على مسؤوليته ليبدو له بأنه الوحيد، منذ أن وُجد العالم، الذي رأى هذه الأشياء الخارقة. «أنا وحيد، وهم كذلك كلهم أيضا!» صرخ برعب. نزع نفسه من الوعي المشترك، رمى بنفسه خارج العالم الواقعي الوحيد، حيث أن الواقع مؤسس بالضبط على هذا الوعي المشترك - لأن، هل من قاعدة أخرى يمكن للواقع أن يتأسس عليها؟ - يبدو دوستويفسكي معلقا بين السماء والأرض. لقد اختفت الأرض من تحت أقدامه ولم ينجح

في أن يعرف إن كان هو الموت، أو أعجوبة الولادة الثانية.

كان القدماء يقولون إن الالهة يفترقون عن البشر في أن اقدامهم لا تلمس الأرض أبدا، وبأنهم لم يكونوا بحاجة إلى دعم، إلى يابسة. لكنهم آلهة، آلهة قديمة، كائنا ميثولوجيا. ويعرف دوستويفسكي جيدا، مثله مثل غيره، وأفضل من غيره، بأن الآلهة القديمة - كما الاله الجديد - منبوذة من قبل العقل إلى خارج حدود التجربة وبأنها ليست سوى أفكار صافية.

V

في «ذكريات من منزل الموتى»، غالبا ما يتحدث دوستويفسكي عن محكومين بالمؤبد وعن محاولاتهم اليائسة في الهرب. يعرف الإنسان المخاطر التي تعترضه وكم أن الأمل بالنجاة صغير جدا؛ ومع ذلك يقرر القيام بذلك. في السجن، كان دوستويفسكي مدهوشا، بشكل خاص، بالرجال الذين لا يهابون أي شيء ولا يتراجعون عنه. حاول أن يفهم نفسيتهم. بيد أنه لم ينجح في ذلك، لا بسبب نقص في روح الملاحظة، بل لأن ليس هناك أي شيء للفهم. القرار من «المتعذر شرحه». لم يستطع دوستويفسكي سوى استنتاج أن الرجال الحازمون هم من الأشخاص النادرين في كل مكان. كان من الأفضل وبشكل أدّق أن نقول إنه بشكل عام، ليس هناك من

رجال «حازمين»، لأن ليس هناك سوى قرارات كبيرة، وبأنه من الصعب الفهم، إذ لا شيء يدعمهم وبأن - هذه القرارات - في جوهرها، تقصي كل دافع. إنها غير خاضعة ولا لأي قاعدة؛ إنها «قرارات» وقرارات كبيرة»، لأنها بالضبط لا تخضع لأي قاعدة، وبالتالي، لأي شروحات ممكنة. لم يكن دوستويفسكي، في السجن، قد انتبه بعد؛ كان يظن، مثله مثل باقي الناس، بأن ثمة حدودا للتجربة الإنسانية وبأن هذه الحدود محددة من قبل مبادئ أبدية، غير قابلة للانتقاص. بيد أن «القبو» يشكل حقيقة جديدة تراءت بالنسبة إليه: هذه المبادئ غير موجودة، وليس قانون السبب الكافي الذي يشكل قاعدة ليست سوى اقتراح للإنسان الذي يعشق حدوده الخاصة وينحني أمامها.

«أمام الجدار، يتراجع الناس البسطاء وأصحاب الفعل بإخلاص شديد. لا يمثل هذا الجدار بالنسبة إليهم، ما يمثله بالنسبة إلينا، ذريعة، ذريعة للابتعاد عن الطريق، ذريعة لا نؤمن بها نحن أنفسنا في الكثير من الأحيان، إلا أننا سعداء للغاية كي نستفيد منها. لا، إنهم يعودون بطيبة قلب. هناك في الجدار شيء مهدئ بالنسبة إليهم، شيء أخلاقي، حاسم، وحتى شيء روحاني، ربما... حسنا، إنه بالضبط هذا الإنسان البسيط الذي اعتبره الإنسان الطبيعي، مثلما أرادت رؤيته الأم الحنونة الطبيعة،

عندما وضعته بمحبة فوق هذه الأرض. على الأقل أنا أحسد هذا الإنسان. إنه غبي ولا أجادل ذلك، ولكن من الممكن أن على الإنسان العادي أن يكون غبيا، ما أدرانا بذلك؟ ومن الممكن أيضا أن يكون جميلا جدا».

لتفكروا بهذه الكلمات؛ تستحق عناء أن نفكر فيها. ما من مفارقة مزعجة فيها، بل أنها حدس فلسفي مدهش. مثل كل الأفكار الجديدة العائدة للرجل «السفلي»، تتخذ شكل سؤال، لا شكل جواب. ومن ثم نجد هذه الـ ربما التي لا يمكن تجنبها، والتي تبدو كأنها وضعت هنا بشكل مقصود كي تحول الأسئلة الناشئة إلى أسئلة جديدة لا يمكن إيجاد أجوبة عنها: يمكن للإنسان العادي أن يكون حيوانا؛ يمكن أن يحدث ذلك وأن يكون جميلا حتى؛ دائما هذه الـ «ربما» التي توهن الفكر وتفقده مصداقيته، هذا الوضوح المثير للشك، الوامض، غير المحتمل بالنسبة للمعنى المشترك، الذي يدمر أطر الأشياء، يمحو الحدود بينها، لدرجة أننا لا نعد نعرف أين ينتهي بعضها ولا أين يبدأ غيرها؛ نفقد معها كل ثقة بأنفسنا، كل حركة باتجاه هدف محدد يصبح مستحيلا. بيد أن الأمر الأساسي يكمن في أن هذا الجهل يظهر فجأة، لا بكونه لعنة بل هبة سماوية...

«أواه، أخبرني، من كان أول من أعلن، من كان أول من أعلن بأنه، إذا قمنا بتنوير هذا الإنسان، إذا فتحنا

عينيه على مصالحه الحقيقية، على مصالحه الطبيعية، فإنه سيصبح، على الفور إنسانا صالحا وصادقا، لأنه إن استنار بالعلم وفهم مصالحه الحقيقية، فإنه سيرى في الخير مصلحته الحقيقية؛ ومع ذلك، فمن المتعارف عليه بأنه لا يمكن لأحد التصرف ضد مصلحته عن علم، فهل سيكون الإنسان، بذلك، مُلزما بالضرورة، بفعل الخير؟ أيها الطفل! يا أيها الطفل النقي والساذج!... المصلحة! ما هي المصلحة؟ ماذا ستقول إن حدث في يوم من الأيام، إن تمكنت المصلحة الإنسانية لا أن تتطلب، بل توجب عليها أن تتطلب، في بعض الحالات، تمني السوء لا الخير لبعضنا البعض؟ فلو كان الأمر كذلك، لو حدث أن بدا الأمر على هذه الشاكلة، لسقطت القاعدة في الغبار».

ما الذي يجذب دوستويفسكي؟ الـ «ربما»، غير المتوقع، الفجائي، الظلمات، النزوة، هذا بالضبط - ومن وجهة نظر التفكير السليم والعلوم - ما هو غير موجود أو أنه موجود بشكل سلبي. يدرك دوستويفسكي جيدا ما يفكر فيه العالم بأسره، يعرف أيضا، وبشكل جيد أن - وبرغم عدم معرفته بمذاهب الفلاسفة - أكبر الجرائم، ومنذ الأزمنة الغابرة القديمة، كمنت دائما في عدم احترام القوانين. بيد أن شكا مرعبا تسلل إلى روحه: ألا يمكن أن يكون ذلك بالضبط، ما دفع البشر إلى أن ينخدعوا دائما؟

لـو أن «نقـد العقـل المحـض» لم يُكتـب يومـا، لـكان توجـب البحـث عنـه عنـد دوستويفسـكي، في هـذا الصـوت السـفلي (في قبـوي) وفي الروايـات الكبـيرة التـي انحـدرت منـه. مـا قدمـه لنـا كنـط، ليـس نقـدا، بـل تمجيـد للعقـل المحـض: كيـف طـرح كنـط السـؤال؟ إن علـوم الرياضيـات موجـودة، والعلـوم الطبيعيـة موجـودة؛ لـذا، هـل هنـاك مـكان بعـد للعلـوم الميتافيزيقيـة لـكي نجـد في بنيتهـا تماثـلا لبنيـة العلـوم الوضعيـة التـي تمـت برهنتهـا؟ هـذا ما أسـماه كنـط «النقـد»، «الاسـتيقاظ مـن النـوم الدوغـمائي»! لكـن وقبـل أي شيء، علينـا أن نطـرح سـؤال المعرفـة، معرفـة مـا إذا كانـت العلـوم الوضعيـة قـد تـمّ تبريرهـا حقـا، إن كان لديهـا الحـق في تسـمية «معرفتهـا» بالعلـوم؟ في معرفة أن ما تعلمنـا إيّـاه ليـس وهـما وكذبـا؟ اسـتيقظ كنـط بشـكل سيء مـن سـباته العلمـي لدرجـة أنـه لم يطـرح حتى السـؤال. كان «مقتنعـا» بـأن العلـوم الوضعيـة بُـررت مـن خـلال نجاحهـا، أي مـن خـلال الخدمـات التـي قدمتهـا إلى البشريـة. لـذا لا يمكـن لهـا أن تُحاكـم، بـل أنهـا هـي التـي تُحاكِـم. إن رغبـت الميتافيزيقيـا في أن تنوجـد، عليهـا أولا أن تطالـب بعقـاب الرياضيـات والعلـوم الطبيعيـة ومباركتهـما.

الأمـر مختلـف عنـد دوستويفسـكي، هـي المتافيزيقيـا التـي تُحاكـم العلـوم الوضعيـة. يطـرح كنـط سـؤالا: هـل الميتافيزيقيـا ممكنـة؟ إن كانـت كذلـك، فلنتابـع محـاولات

مـن سـبقنا. وإن لم تكـن، لنتخـلى عنهـا، لنلتـزم بحدودنـا. فالاسـتحالة هـي حـدود طبيعيـة؛ إذ أن فيهـا شيء مـن المهـدئ، وحتـى مـن الروحانيـة. الكاثوليكيـة نفسـها تؤكـد: (Deus impossibilia non Jubet).

لا يفـرض اللـه المسـتحيل. بـل هنـا تتمظهـر الرؤيـة الثانية. فالرجـل السـفلي، هـذا الرجـل السـفلي نفسـه الـذي يعتـبر نفسـه أسـوأ البـشر، يـصرخ فجـأة بصـوت حـاد، متوحـش، مرعـب (كل شيء مرعـب في الرجـل السـفلي)، يـصرخ بصوت ليـس صوتـه (صـوت الرجـل السـفلي ليـس صوتـه مثلـما أن عينيـه لا تخصـاه):

«الباطـل، الكـذب! يفـرض اللـه المسـتحيل! لا يطلـب اللـه سـوى المسـتحيل. أنتـم جميعـا، كلكـم تستسـلمون للجـدار؛ إلا أننـي أعلـن لكـم بـأن جدرانكـم، «مستحيلكم» ليـس سـوى عـذر، ذريعـة وبـأن إلهكـم، هـذا الالـه الـذي لا يطلـب لا المسـتحيل، هـو ليـس إلـه، بـل صنـم رهيـب».

VI

نتذكر الغضب الذي رمى الرجل السفلي من خلاله، نفسه، في حلق الحقائق البديهية؛ المختالة في الوعي من جرّاء حقوقها العليا، غير الملموسة. لتسمعوا هذا أيضا، لكن توقفوا عن التفكير بأن قضيتكم على علاقة مع موظف رسمي من بطرسبرغ، صغير ومُحتقر:

«أتابع الحديث فيما يخص موضوع الأشخاص ذوي الأعصاب القوية... هؤلاء السادة يذلّون أنفسهم، على الفور، أمام استحالة الأمر. الاستحالة، هي إذًا سور حجري. أيُّ سور حجري؟ إنها القوانين الطبيعية، بالطبع، استنتاجات العلوم الطبيعية، الرياضيات. حاولوا مناقشة ذلك! - عفوا، سيقال لكم: «2×2 يساوي أربعة. لا تطلب الطبيعة إذنك؛ إنها لا تهتم أبدا برغباتك وما إذا كانت

رغباتها وقوانينها تعجبك. مجبر أنت على قبولها كما هي، وبالتالي، قبول كلّ نتائجها. الجدار هو جدار، وما إلى ذلك، الخ... - ولكن يا إلهي! ما الذي عليّ أن أفعله مع قوانين الطبيعة وعلم الحساب، إذا كانت هذه القوانين، لسبب أو لآخر، لا تروق لي؟ بالطبع لن أستطيع تحطيم هذا الجدار فوق جبيني، إن لم أكن أملك القوى الكافية لهدمه، إلا أنني لن أتصالح معه لسبب وحيد وهو أنه جدار حجري وأن قواي لا تكفي لذلك. كما لو أن هذا الجدار يشكل نوعا من السكينة ويقترح علينا أدنى فكرة للسلام بسبب أنه شُيّد على قاعدة «2×2 يساوي أربعة»! آه، إنها سخافة السخافات! من الصعب جدا أن تفهم كلّ شيء، أن تكون مدركا لكل الاستحالات ولكل الجدران الحجرية، وأن لا تتصالح مع أيّ منها إن كان ذلك يثير اشمئزازك، وأن تصل إلى استنفاد التراكيب المنطقية الأكثر حتمية ذات الاستنتاجات الأكثر فظاعة فيما يتعلق بالموضوع الأبدي العائد لمسؤوليتك الخاصة (على الرغم من أنك ترى بوضوح أنك لست مسؤولا عن ذلك ولا بأي حال من الأحوال)، وأن تغمر نفسك بشكل حسيّ في القصور الذاتي وفقا لذلك، وأنت تصرّ أسنانك بصمت وتفكر بأنه لا يمكنك أن تثور ضد أي شيء، لأنه ليس هناك أي شخص، ولن يكون هناك أي احد؛ من المحتمل أن يكون الأمر مجرد مزحة، عملية غش، بأنه مجرد رطانة - فنحن لا نعرف ماذا ولا نعرف من».

من المحتمل أن تشعروا بالإعياء بمتابعة فكر دوستويفسكي ومجهوده اليائس كي تُسقطوا البديهيات غير المرئية... إذ أنكم لا تعرفون إن كان يتكلم جديا أم أنه يسخر منكم. أيمكننا أن نضع في مواجهة الطبيعة التي تقوم بعملها، من دون أن نفكر بأنفسنا، بـ «أنانا»، الصغيرة والضعيفة، وأن نعتبر الأحكام التي تنفي هذه الإمكانية بالعبثة؟

بيد أن دوستويفسكي يسمح لنفسه بالضبط بالشك في أن لمنطقنا الحق في الحكم على الممكن وعلى المستحيل. لا تطرح نظرية المعرفة هذا السؤال. إذ، إن لم يكن مقدرًا للعقل أن يحاكم الممكن وغير الممكن، من يمكنه أن يحاكمه عندها؟ حينذاك، كلّ شيء يصبح ممكنا وغير ممكن في الوقت عينه. وكما لو أنّ دوستويفسكي الذي كان يسخر منّا، يعترف - خلافا للسائد - بأنه لا يمتلك القوة اللازمة لكي يُسقط الجدار. أيُقرّ إذا بمستحيل ما، بحدود ما؟ بيد أننا، حينذاك، نسقط في الفوضى المطلقة، وحتى ليس في الفوضى، بل في العدم الذي تختفي فيه كل القواعد، كل القوانين، كل الأفكار، الواقع بأسره! يتراءى أن، وبعيدا عن بعض الحدود، عليه أيضا أن يبرهن عن ذلك. إذ يمضي الرجل المتحرر من سلطة الأفكار، المروعة، إلى مناطق مدهشة، غير معروفة كثيرا، وسيبدو له عندئذ بأنه غادر الواقع، وبأنه دخل في العدم الأبدي. لم يكن دوستويفسكي أول من عاش هذا الانتقال المرعب للغاية،

من وجود إلى آخر. فقبله بألف وخمسمائة سنة، نجد أفلوطين - الذي حاول بدوره أيضا أن «يحلق» فوق تجربتنا - يروي بأننا في اللحظة الأولى، نشعر باختفاء كلّ شيء، وبأننا نشعر بخوف مجنون أمام العدم الصافي (3). سأضيف إلى ذلك، أن أفلوطين لم يقل كل شيء، وبأنه أخفى عنّا الأهمّ: لم تكن تلك المرحلة الأولى، بل الثانية أيضا، وكل المراحل التي تعقبها. حين تُرمى النفس خارج الحدود الطبيعية، فلن تتمكن عندها أبدا من أن تتحرر من الرعب، مهما روت لنا أفراحا مشوقة. الفرح هنا، لا يستبعد الرعب أبدا. فهذه الحالات مرتبطة عضويا، الواحدة بالأخرى: فلكي يكون هناك أمامنا فرح جميل ومدهش، يتوجب أن يكون هناك في البداية، رعب مروّع.

لا بدّ من ضرورة مجهود خارق، لكي يجرؤ الإنسان على وضع أناه في مواجهة مع الكون، مع الطبيعة، مع البديهة الأعلى: فـ «الكلّ» لن يُحصى مع الأنا، فأنا لا أحصي «الكلّ».

لينتصر «الكلّ! حتى أن دوستويفسكي يجد نوعا من اللذة بجعلنا جزءا من هزائمه التي لا تتوقف ومن شقائه. لا أحد من قبله، ولا أحد من بعده، كتب بهذا الثراء المدقع كلّ هذا الاذلال، كل عذابات هذه النفس المحطمة بسبب «البديهيات». لقد انتزع من ذلك هذا

الاعتراف: «هل أن الإنسان الذي وعى بنفسه، يمكن له حقا، أن يحترم ذاته»؟ من هو، في الواقع، الذي يمكنه احترام العجز والصغر؟ نهاجم الرجل السفلي، نطرده، نضربه. وهو، يبدو لنا، كأنه لا يبحث سوى عن مناسبات للتألم، أكثر فأكثر. فكلما تعرضنا له بالهجوم، في الواقع، وكلما أهناه، وسحقناه، كلّما كان أقرب من هدفه الذي يلاحقه: الهرب من «الكهف»، من هذه البقعة المغوية التي تهيمن عليها القوانين والمبادئ، «البديهيات»، بعيدا عن الإمبراطورية المثالية العائدة للناس «السليمين» و«الطبيعيين». الرجل السفلي هو الكائن الأشقى، الأشدّ بؤسا، الأكثر إثارة للشفقة. لكنّ الرجل «الطبيعي» أي الإنسان الذي يعيش في هذا القبو عينه، إلا أنه لا يصل إلى حدود الشك بأنه قبو فنجده مقتنعا بأن حياته هي الحياة الحقيقية، الأسمى، وعلومه هي العلوم الأكثر تكاملا وخيره هو الخير المطلق، بأنه الألف والياء، بداية كلّ شيء ونهايته، فهذا الإنسان بالذات يسبب، في المنطقة ما تحت أرضية، ضحكة ملحمية.

VII

يطرح دوستويفسكي السؤال: هل أنّ الـ «الكلّ»، الوعي المشترك (الذي منه تصدر البديهيات)، هل لها الحق بالامتيازات العليا التي استولت عليها، لنستعمل تعبيرا آخر، هل للمنطق الحق أن يحكم بشكل مستقل، من دون أن يعير انتباها لأي يكن، أو بالأحرى ليس هناك سوى عملية استحواذ قدستها العصور الماضية. في عملية النقاش بين «الكلّ» وبين الإنسان الخاص الحيّ، يرفع دوستويفسكي سؤال الحق: «الكل» استولى على السلطة؛ يجب انتزاعها منه ولذلك، علينا أن نتوقف عن الإيمان بصوابية حق «الكل» وبأن نقول لأنفسنا إن ما صنع قوة الخصم هو إيماننا بقدرته. والحال كذلك، يتوجب علينا أن نكافح ضد مبادئ المعرفة العلمية، لكن ليس

عـبر وسـيلة المحاجّـة، بـل عـبر اسـتعمالنا أسـلحة أخـرى. يمكـن للحجـج أن تسـاعدنا طالمـا أننـا نتقبـل الفرضيـات التـي تنسـاب منهـا، لكـن بمـا أننـا لم نعـد نؤمـن بهـا، علينـا أن نبحـث عـن شيء آخـر.

«2×2 يسـاوي أربعـة، أيهـا السـادة، لا يسـاوي ذلـك الحيـاة، بـل هـو المـوت. في أي حـال، خـشي الإنسـان دائمـا هـذا الـ «2×2 يساوي أربعـة»، وأنـا مـا زلـت أخـشى ذلك إلى الآن. صحيـح بـأن الإنسـان لا يهـان إلا بالبحـث عـن 2×2 يسـاوي أربعـة...، يُضحـي بحياتـه مـن أجـل هـذه الأبحـاث، ولكننـي أقسـك لكـم، بأنـه يخـاف مـن أن يجـد ذلـك، مـن أن يكتشـفه حقـا... لكـن، في رأيـي، أن هذه الـ 2×2 يسـاوي أربعـة ليسـت سـوى وقاحـة محضـة. إن الـ 2×2 تنظـر إلينا بوقاحـة؛ ويداهـا عـلى وركيهـا لتـزرع نفسـها باعوجـاج عـلى طريقنـا ولتبصـق في وجوهنـا. سـأتقبل [فكـرة] أن 2×2 يسـاوي أربعـة هـي أمـر ممتـاز، لكـن إن كان عليـك أن تمـدح كلّ شيء، فسـأقول لكـم إن 2×2 يسـاوي خمسـة لهـو أمـر سـاحر بـدوره».

لسـتم متعوديـن عـلى حجـج مماثلـة؛ بـل ربمـا حتـى أنكم تشـعرون بالإهانـة إذ بينـما نتكلـم عـن نظريـة المعرفـة أذكر هـذه المقاطـع لـ دوستويفسـكي. لكنتـم عـلى حـق فيـما لـو أن دوستويفسـكي لم يُـثر مسـألة الواجـب. لكـن مرتـين رقـم أربعـة، لا يرغـب المنطـق مـع كل بديهياتـه بالضبـط

أن يتقبل أنه يمكننا لنا أن نناقش مسألة الواجب؛ لو قبلت - البديهيات - بذلك، لفقدت سببيتها. لا ترغب في أن تُحاكم؛ ترغب في أن تكون القاضي والمشرع؛ وإن ثمة شخصا ما يرفض في منحها هذا الحق، نجدها ترمي في وجهه الحُرم، تبعده من الكنيسة الإنسانية، المسكونية. عند هذا الحدّ تتوقف كلّ إمكانية نقاش، هنا يبدأ كفاح يائس، قاتل. الرجل السفلي محروم باسم المنطق من حماية القوانين. وها أن هذا الرجل البائس، المُهان، المثير للشفقة، يجرؤ على أن ينتصب واقفا ليدافع عمّا يمكن تسميته «الحقوق». لكن كيف عليه أن يتصرف كي يُسقط هذا الطاغي، أي وسائل عليه أن يتخيلها؟ لا تنسوا بأن جميع الحجج هي حجج منطقية، وهي غير موجودة إلا لدعم مزاعم المنطق. ثمة وسيلة وحيدة: السخرية، اختلاق قصص ووضع مقابل كل متطلبات المنطق «لا» قاطعة. يجيب دوستويفسكي، على المنطق، الذي يخلق قواعد ويبارك الناس الطبيعيين، قائلا:

«لِمَ أنت مقتنع بشدّة، بجدية شديدة، بأن الطبيعي فقط هو الشيء الضروري والإيجابي، باختصار، هو ما يجلب الرفاهية. ألا يخطئ العقل؟ هل من الممكن أن يحب الإنسان شيئا آخر غير الرفاهية. ألا يمكن أنه يحب المعاناة بالقدر عينه؟ يحدث أحيانا بأن يحب الإنسان المعاناة إلى درجة الشغف. هذا أمر واقع. ما من حاجة

أبـدا إلى الاتـكاء عـلى التاريـخ الكـوني. إسـألوا أنفسـكم، إن كنتـم عشـتم حقـا فقـط. أمـا فيـما يتعلـق برأيـي الخـاص، فسـأقول لكـم إنـه مـن غـير اللائـق أن لا تحبـوا سـوى الرفاهيـة. هـل هـذا جيـد، هـل هـو سيء، إلا أنـه في بعـض الأحيـان، يكـون مـن الجيـد أن نحطـم شـيئا مـا. ومـع ذلـك، فأنـا هنـا، لا أدافـع لا عـن المعانـاة ولا عـن الرفاهيـة، بـل أننـي مـع نـزواتي ومـع أن تكـون متاحـة لي عنـد الـضرورة. في [مسرحيـات] الفودفيـل عـلى سـبيل المثـال، مـن غـير المسـموح بالمعانـاة، أعلـم ذلـك. لا يمكننـا قبولهـا في قـصر مـن كريسـتال: المعانـاة هـي شـكّ، نفـي، لكـن مـا هـو هـذا القـصر الكريسـتالي الـذي يمكننـا أن نشـك فيـه. في حـين أننـي متأكـد مـن أن الإنسـان لـن يتخلّى ابـدا عـن المعانـاة الحقيقيـة، أي عـن الدمـار وعـن الفـوضى (الـكاوس).

في مقابـل هـذه الحجّـة، نجـد أن البراهـين الأكـثر دهـاء والتـي وُضعـت عـلى مـرّ ألاف السـنين مـن قبـل نظريـات المعرفـة، نجـد أن عليهـا أن تنهـار وتتوقـف. لم يعـد الأمـر عائـدا إلى القانـون، إلى المبـدأ، اللذيـن يفرضـان شروطهـما ويحـوزان الضمانـات، بـل إلى النـزوة، النـزوة التـي - عـبر طبيعتهـا عينهـا، وكـما يعـرف الجميع ذلك - لم تعد تسـتطيع الادعـاء ولا أن تمنـح ولا أن تسـتقبل أي نـوع مـن الضمانـات. نكـران ذلـك، معناه إنـكار البديهـة، لكن بالضبـط في مواجهة البديهيـات، التـي سـبق لي أن قلـت إن دوستويفسـكي يكافح

ضدها. ليست بديهياتنا سوى اقتراحات، كما هي عليه حياتنا أيضا، ومثلما يردد طيلة الوقت، لا الحياة بل الموت. وإن رغبتم في أن تفهموا دوستويفسكي، عليكم أن تتذكروا دائما «أطروحته الأساسية»: مرتان أربعتان هو مبدا موت. علينا أن نختار: إما أن نرمي «مرتان أربعتان» وإما أن نتقبل بأن الموت هو الكلمة الأخيرة، هو المحكمة الأسمى.

هنا يكمن مصدر بغض دوستويفسكي في وجه العيش الرغيد، التوازن، الاكتفاء ومن هذه النقطة ينساب تناقضه الفكر المدهش: يعشق الإنسان الألم.

حين نقرأ دوستويفسكي اليوم، لا نعرف بالضبط، إن كان لدينا حق الاحتجاج ضد اكتفاء «مرتان أربعتان» أم أنه علينا أن - وكما في الماضي - نستسلم أمامها. بدوره أيضا، لا يعرف دوستويفسكي إن كان قد بطح عدوه أرضا أم أنه سقط تحت ثقل قانونه.

لم يعرف ذلك لغاية أيامه الأخيرة. هرب من الوعي المشترك، لنجده عالقا في قلب دوامة، لم يعد يستطيع أن يحكم مثلما لم يعد أيضا حتى أن يعرف إن كان ذلك خيرا أم شرّا. كان يكره الطمأنينة وكل الاكتفاء التي يوفرها النظام للإنسان: لم يعد من الممكن، لا لنظريتنا في المعرفة، ولا لمنطقنا، أن يفرضا نفسيهما عليه.

فمن وهبه ملاك الموت أعطيته الغامضة، لم يعد باستطاعته أن يمتلك بعد، هذا اليقين الذي يصاحب أحكامنا العادية ولا أن يمنحنا تلك الصلابة الجميلة تجاه الوعي المشترك. يحتاج أن يعيش، من الآن فصاعدا، بدون يقين، بدون قناعة. يرى الرجل السفلي بأن لا «أعمال» المنطق، ولا أي من «الأعمال» الإنسانية، جديرة بأن تنقذه. لقد تفحص - وبأي انتباه! بأي توتر لكينونته كلها! - ما يمكن للإنسان أن يفعله بمنطقه، تفحص كلّ «قصوره الكريستالية»، فرأى بأنها ليست قصورا كريستالية، بل قنّ دجاج وجحور نمل، لأنها شُيّدت كلها وفق مبدأ الموت، وفق «2×2 يساوي أربعة». وكلّما كان يعي هذا اللاعقلي، هذا المجهول، هذا السديم، الذي يثير الرعب في الوعي العادي، كلما كان يتفتح أكثر في داخله. لهذا السبب، تنازل دوستويفسكي عن اليقين ووضع الجهل كهدف أسمى؛ لذا «تجرأ في مدّ لسانه» للبديهيات، لهذا مدح نزوته، غير المشروطة، غير العقلانية دائما، غير المتوقعة، ولذلك ضحك من كل الفضائل الإنسانية.

سيرة

وُلِد ليون إيزاكوفيتش شوارتزمان - المعروف باسم ليون شيستوف - في 13 شباط (فبراير) من العام 1866، في مدينة كييف. كان والده، إسحاق مويسيفيتش شوارتزمان، يدير إحدى شركات النسيج. درس شيستوف الرياضيات ومن ثم القانون في جامعة موسكو، إلا أنه لم يستطع الحصول على درجة الدكتوراه في القانون بسبب الرقابة التي منعته من مناقشة أطروحته «الثورية للغاية»، حول قوانين العمّال الجديدة. في العام 1891 (وفي بعض المراجع العام 1892)، اضطر لترك فترة التدريب كمحامي في موسكو، ليعود إلى منزل والده في كييف لمحاولة إنقاذ شركة العائلة من الإفلاس. عمل فيها إلى العام 1895، لكنه كتب في تلك الفترة نصوصه الأدبية الأولى. في العام

1894، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، اكتشف نيتشه عبر كتابه «ما وراء الخير والشرّ».

عانى شيستوف في العام 1895، (في شهر أيلول/ سبتمبر)، من انهيار عصبي حاد. إذ كان السبب في ذلك، الضغط الكبير الذي نتج عن تدهور حالة شركة العائلة، كما تفشي مرض السلّ الذي أصاب صديقه المقرب رابوتنيكوف - الذي توجب عليه المغادرة إلى إيطاليا للعلاج حيث توفي فيها العام 1897 - أضف إلى ذلك كله ذلك «الحادث المأساوي الذي أصاب حياته الخاصة»، بيد أن أحدا لا يعرف، لغاية اليوم، تحديد كنه هذه الحادث، الذي وسم حياة شيستوف وبدل في مسارها، ما سمح له «مغادرة أخلاق الوجود المبتذل» ليكتشف أخلاق التراجيديا.

هذا الانتقال، هو ما كتبه، بعد خمس سنوات، في كتابه «فلسفة المأساة»، إذ سعى شيستوف إلى أن يصل إلى فهم أفضل لتجربته المأساوية، من خلال مقارنتها مع تجربة دوستويفسكي في سجن الأشغال الشاقة، كما بتجربة نيتشه في فترة مرضه. وبالرغم من ذلك كله، شهد العام 1895، انكسار شيء ما، إلا أن فكر شيستوف، كان لا يزال يومها فكرا مثاليا. لذلك كان اكتشافه لكتاب «وليم شكسبير»، لمؤلفه براندیس، اكتشافا غاضبا، ولا سيما أن هذا الأخير، كان ناقدا دانماركيا شهيرا ومعجبا

شديدا بـ نيتشه. فبالنسبة إلى شيستوف، فقد وجد أن براندیس كان قارئا سطحيا للغاية ولا يأخذ في الاعتبار كلّ مأساة معادلة هاملت: «الزمن أصبح خارج مفاصله»، وهي صيغة مركزية في فكر شيستوف والتي ترمز إلى الصدع الذي عاشه في العام 1895. وكردّ فعل على شكوكية براندیس وعلى وضعية تاين (Taine)، كتب شيستوف مؤلفه الأول شكسبير وناقده براندیس» (1898)، وقد دافع في كتابه هذا عن المثالية والأخلاق. ومثلما يعترف لتلميذه فوندان (Fondane) بالقول: «كنت أحاول حينذاك إعادة الزمن إلى مفاصله» [الوقوف على قدميه]. ولم أدرك إلا في وقت لاحق بأنه يجب ترك الزمن خارج مفاصله [أن يضيع]. وليتحطم إلى أشلاء!».

بعد العام 1896، اقام شيستوف في العديد من المدن الأوروبية، حيث كان يتلقى العلاج، وقد قرأ في تلك الفترة نيتشه وألف كتابه عن شكسبير (1896 - 1897)، ليلحقه بكتاب «فكرة الخير عند الكونت تولستوي ونيتشه» (1898 - 1899، لكنه لم ينشره إلا في العام 1900) ومن ثم كتاب «دوستويفسكي ونيتشه» (1900 - 1902، وقد صدر العام 1903، وبالفرنسية العام 1926 تحت عنوان «فلسفة التراجيديا»). في العام 1897، تزوج سرّا عن والديه اليهوديين بشابة أرثوذكسية تدعى آنا إيلياساروفنا بيروسوفسكايا، حيث اعتنق الديانة المسيحية.

على مدى عشر سنوات، كان شيستوف يلتقي بزوجته، من وقت لآخر، في بعض المدن الأوروبية المختلفة لتجنب إثارة الشبهات في أسرته. وبين عامي 1901 - 1908 كان شيستوف يمكث بشكل رئيسي في مدينة كييف حيث عمل في شركة العائلة، كما أنه نشر في العام 1905 كتاب «على تخوم الحياة، ذروة الاقتلاع»، وهو كتاب «أفوريسمات» يشهد على تأثيرات نيتشه القوية على فكره. وقد أعقبه في العام 1907، كتاب «البدايات والنهايات» و«السهرات الكبيرة» (1910). ومع مرور الوقت، شهد فكر شيستوف، فترة انتقالية من «فلسفة التراجيديا» إلى مشروع فلسفي ديني وسم بعمق المرحلة الأخيرة من فكره.

ربما هنا، قد بدأت مرحلة جديدة من حياة شيستوف الفكرية، إذ بدأت أعماله تتسم بالنضج الكبير التي قادته إلى الشهرة، ومن هذه الأعمال «قوة المفاتيح» و«على أرجوحة أيوب»، وقد صدر هذان الكتابان في فرنسا بفضل صديقه المترجم بوريس دو شلويتزر.

في العام 1920، وبعد الثورة البلشفية، غادر شيستوف روسيا إلى سويسرا، ومن ثم انتقل للعيش في فرنسا بدءا من العام 1921، التي بقي فيها إلى حين وفاته العام 1938. وفي العام 1924، التقي عن طريق جول دو غوتييه، الشاعر بنيامين فوندان الذي أصبح أكثر تلاميذه إخلاصا

وقد كتب عنه «الوعي الشقي»، وهو واحد من أهم الكتب الفلسفية الوجودية في تلك الحقبة وقد نُشر العام 1936.

في العام 1925، التقى شيستوف بـ راحيل بيسبالوف، التي أصبحت تلميذته الثانية المهمة (بعد فوندان)، لكنها كانت «أقل إخلاصا منه»، وقد تأرجح عملها الفلسفي ما بين فكر شيستوف وفكر هيدغر. وقد نشرت العام 1938، كتاب «مسارات وتقاطعات»، وقد أهدته إلى ليون شيستوف الذي خصصت عنه فصلا كاملا بعنوان «شيستوف أمام نيتشه».

في العام 1928، التقى شيستوف بـ هوسرل في مدينة أمستردام، ليرتبط معه بصداقة، على الرغم من اختلاف فكر الرجلين. وقد جعله هوسرل يكتشف كيركغارد الذي تبدو تجربته الفلسفية الوجودية قريبة من تجربة شيستوف. اكتشاف، وسم أيضا فكر شيستوف بقوة، ما دفعه إلى تأليف كتاب بعنوان «كيركغارد والفلسفة الوجودية» العام 1936. أما عمله الكبير «أثينا وأورشليم» الذي صدر العام 1938، قبل أشهر قليلة من رحيله، فقد جمع فيها مقالات كتبها بين عامي 1925 و1937. وقد اعتبر شيستوف أن عمله هذا هو «العمل الأساسي [في مسيرته]» حيث «أن المعارضة بين المعرفة والإيمان تبدو أعمق بشكل أبدي».

رحل شيستوف عن دنيانا في شهر تشرين الثاني من العام 1938، بعد بضعة أشهر من رحيل إدموند هوسرل، وكان وجد الوقت ليخص زميله وصديقه الألماني بمقالة بعنوان «إلى ذكرى فيلسوف عظيم».

أثرت فلسفة شيستوف بعدد كبير من الكتّاب والفلاسفة الذين أتوا بعده، من بينهم جورج باتاي، أندريه مالرو، غابرييل مارسيل، ألبير كامو، إيمانويل ليفيناس، جيل دولوز، إميل سيوران، فلاديمير جانكليفيتش. وإلى جانب تأثيره في هذه الكوكبة من المفكرين والكتّاب، لعب شيستوف دورا مهما في المسار الفلسفي عبر مواقفه التي يصعب وضعها في خانة معينة، كما - وهنا الأهم - إدخال «فينومينولوجيا» إدموند هوسرل إلى فرنسا، عبر تعليقاته على نيتشه وباسكال ولوثر وأفلوطين وبخاصة عبر النقد الذي وجهه إلى العقل كما إلى البديهيات.

إسكندر حبش

من مواليد بيروت العام ١٩٦٣، لأم لبنانية (والدتها أرمنية من «درتيول» هُجّرت منها بعد المجازر التركية بحق الأرمن) وأب فلسطيني (من مدينة «اللد»، هُجّر إلى بيروت عام النكبة في ١٩٤٨).

درس في بيروت، وأكمل دراساته العليا في جامعتي «إكس أون بروفانس -مارسيليا» و«رين - الثانية» في فرنسا (الأدب والفلسفة).

عمل في الصحافة، في جريدة السفير اللبنانية، حيث نشر أولى مقالاته فيها العام ١٩٨٣، وبقي فيها لغاية احتجابها عن الصدور بداية العام ٢٠١٧، حيث تبوأ في السنين الأخيرة رئاسة القسم الثقافي.

أصدر العديد من المجموعات الشعرية (١٠ مجموعات)، منها: «بورتريه لرجل من معدن» (١٩٨٨ - ديوانه الأول)، و«إقامة في غبار» (٢٠٢٠، مجموعته الأخيرة لغاية هذا التاريخ)، وله كتابان بالفرنسية.

له ثلاثة كتب في النقد هي: «مديح اللامرئي» (٢٠٠٣) و«حكاية الحكاية» (٢٠٠٩)، و«حيوات ميتافيزيقية، حيوات تاريخية» (٢٠١١)

ترجم إلى العربية ما يفوق الأربعين كتابا في الشعر والرواية والفلسفة والحوارات.

تُرجمت بعض أشعاره إلى اليونانية، والأرمنية، والفارسية، والفرنسية، والإيطالية، والبرتغالية، والألمانية، والإنكليزية، والألبانية، والسويدية، والاسبانية، والكردية، والتركية، والصينية... (وغيرها من اللغات).

شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية والمهرجانات الشعرية، في العالمين العربي والغربي.

حاز العام ٢٠٠١ منحة إقامة أدبية من «المركز الدولي للشعر - في مدينة مارسيليا الفرنسية» والعام ٢٠٠٦ منحة إقامة من «بيت الكتّاب والمترجمين الأجانب - مدينة سان - نازير الفرنسية»، وعام ٢٠٠٧ منحة إقامة في مدينتي أثينا وتيسالونيكي اليونانيتين بدعم من «السيناسبيسموس».

رئيس اللجنة الدولية لأصدقاء نيكوس كازنتزاكيس (فرع لبنان)، منذ ٢٠١٠.

الكتاب هنا ليس محاولة قراءة دوستويفسكي، بل هي جملة وصول، المطاف عند نص ليون شيستوف، الفلسفي، هذا، الذي كتبه في العام 1922. وإذا كان المترجم يشير إلى سنة الكتابة، فلكي يؤكد على المرحلة التي جاء فيها هذا النص. إذ بعد الثورة البلشفية، غادر شيستوف روسيا، ليقيم فترة قصيرة في سويسرا، قبل أن يستقر في العام 1921، في فرنسا التي بقي فيها إلى تاريخ وفاته العام 1938. ففي هذه المرحلة الأخيرة من عمره، أي المرحلة الفرنسية، تطور فكر شيستوف، بالأحرى انتقل ممّا كان يسميه "فلسفة التراجيديا" (كما جاءت أعماله عن نيتشه وشكسبير ودوستويفسكي وغيرهم) إلى نقده القوي والعميق للعقلانية والبديهيات المتعارف عليها، وبالتالي، نقده للعلم والمنطق - اللذين يجد أنهما دمرا الحسّ الإنساني - في سبيل العودة، إلى روحانية ما، قد تكون دينية، وفق البعض، لكن في العمق، هي هذه الوجودية التي اكتشفها عند كيركغارد، الفيلسوف الدانماركي. لذلك علينا أن نقرأ نص شيستوف حول دوستويفسكي الذي يعيد قراءته بمفهوم آخر، ليُظهر كم أن الكاتب الروسي، كان متقدما في طرح الأسئلة الوجودية المضادة للبديهيات العقلانية. وبالتالي، يفتح شيستوف طريقا متفردا في استنطاق صاحب رائعة "الإخوة كرامازف"، ليشير إلى "حياة أخرى"، ربما حاول منطق ذاك العصر أن يتناساها، أو بالأحرى أن يدفع بها إلى "خارج خشبة المسرح".

كلمة الناشر

منشورات 2021
خطوط وظلال للنشر والتوزيع
الأردن، عمان، جبل الحسين، بناية (20)
ص.ب: 11190، عمان 925220 الأردن
تلفون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+
email: dar5otot@gmail.com
دار خطوط للنشر والتوزيع
9 789923 401347